آفاق تربويّة
في ظلال سورة الفاتحة

تأليف

د / فاروق عبد المجيد السامرائي

رئيس الجامعة الإسلاميّة
ورئيس المركز الثقافي الإسلامي
في ولاية منيسوتا الأمريكيّة

١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

المقدمة

أحمدك ياربّ حمداً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك ، وأشكرك يامولاي على وافر نعمتك وجزيل عطائك ، وأصلي وأسلم على نبيك ورسولك الأمين ، الهادي إلى صراطك المستقيم ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن سلك هديه إلى يوم الدين ، أما بعد :

فحينما عقدت العزم على وضع هذا المؤلف ، الصغير في حجمه ، العظيم في دلالته ، داهمتني مشاعر غريبة ، اختلط فيها القلق بالطمأنينة ، والقوة بالضعف ، واليأس بالأمل ، فلم تجد السكينة إلى نفسي سبيلاً حتّى أسعفني الله بالعيش في ظلال سورة الفاتحة ، بوابة الصلاة ، وبوابة الخير والسعادة والشفاء .

ولمّا عشت معانيها ودلالاتها ، زاد فقري لغنى ربّي ، وضعفي إلى قوّته ، ووحشتي إلى أنسه ، وحاجتي إلى عطائه ، وشوقي إلى جنّته .

لقد أيقنت أنّ غروب حيرتي ، وشروق أملي ، وفتور قلقي ، واستقرار تفكيري ، وغياب أحزاني ، وتخفيف غربتي ووحشتي ، في مظلّة القرآن ، وفي ظلال فاتحته ، فلم أر من كبير في هذا العالم سوى الذي كبر بالعيش في رحابها ، وتساند مع الوجود بفيضها ، وسُقي الفضيلة من نبعها وموردها ، وأضاء طريقه بجذوة من نورها ، فشاء الحقّ سبحانه أن يُلزم عباده بتكرارها في كلّ صلاة يقيمونها ، بل وفي كلّ ركعة يؤدونها ، فهي فاتحة الصلاة ، وفاتحة القرآن ، وفاتحة الخير والشفاء .

ولأجلها آثرت أن أفرد كتابا مستقلا للحديث عن معانيها الزاخرة، ودلالاتها الوافرة، مع بيان جوانبها التربوية التي أفرزتها تلك المعاني والدلالات، جمعا بين التفسير والتربية، لتلتقي القيم بميدانها، والمنطلقات بمستقرها، وليكون القرآن العظيم مورد سقيا لمن شاء أن يرد نبعه، ومنطلق صدق لمن أراد أن يجوب مسرح الحياة في ظلاله. ولعلّ ما حواه هذا الجهد اليسير، يمثّل خطوة صادقة في تحقيق الغاية، ولو بالقدر الذي وسعت فيه طاقتي، واتسعت له معرفتي، وبانت فيه حجّتي.

أردت في هذا الكتاب أن أجوب ميدان الفكر التربوي من بوابة القرآن الكريم، ليكون مُدخل صدق لمن أراد كمال الغاية للساعين في نيل مراده، ومستقرّ أمانٍ للسائرين في رحابه، والسالكين تعاليمه وأحكامه. ولم أدّخر وسعا في خدمة أمّ القرآن، فإن عجزت عن بلوغ الغاية، فذلك من سمات بشريتي، وإن أصبت الحقّ فيها فذلك من فضل ربّي.

أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل، المتواضع في حجمه، العظيم في غايته ومقصده، في ميزان صالح عملي يوم ألقاه ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلاّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء ٨٨، ٨٩).

منهج البحث

في هذا الكتاب اتبعت المنهجية التالية :

أولاً : قمت بتفسير آيات سورة الفاتحة بما يكفي للتعرف على الدلالات التربوية فيها ، دون الخوض في تفصيلات وخلافات علماء التفسير التي قد تكون مجدية في دراسات أخرى.

ثانياً : اعتمدت في هذا الكتاب أصحّ التفاسير الواردة في آيات الفاتحة ، دون الإسهاب في دلالاتها والاتساع في معانيها ، خصوصا إذا لم يلزم الأمر ذلك ، كي لا أُحمّل موضوعات الكتاب أكثر ممّا ينبغي.

ثالثاً : تحدثت عن الدلالات التربوية عقب تفسير كلّ آية من سورة الفاتحة ، وهذه الدلالات جاءت ثمرة للمعاني والمرادات التي تضمنتها .

رابعاً : حرصت قدر الإمكان على اعتماد الروايات والآثار الصحيحة والمسندة ، كي لا أوقع القارئ في دائرة الشك والريب .

خامساً : عزوت الآيات الواردة في هذا الكتاب إلى مواطنها في المصحف الشريف ، وكذلك الأحاديث النبويّة من مصادرها الأصيلة.

أهمية سورة الفاتحة

هي من السور العظيمة في القرآن الكريم ، ولعلّ تكرار قراءتها في كلّ صلاة ، بل وفي كلّ ركعة منها ، سواء كانت فريضة أم نافلة ، خير دليل على عِظَمِ مكانتها ، وعلوّ شأنها ، إضافة إلى أنّها شملت أسس العقيدة والعبادة ، ومعالم الولاء والبراء ، حيث تضمنت :

١- الثناء على الله عز وجل بأهمّ صفاته ، جمعا بين صفات الجمال وصفات الجلال ، فالله تعالى الوحيد الملك والمالك في يوم الدين ، حيث ينادي في عليائه : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يجيب أحد ، فيجيب سبحانه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر١٦) فهو القهّار والجبّار ، وفي ذات الوقت هو الرحمن الرحيم ، وبذلك يعيش العبد بين الترغيب والترهيب ، فتسيل دموع الفرحة عندما تغمره صفات الجمال ﴿الرحمن الرحيم﴾ طمعا في رحمة المولى وعطائه ، وتسيل دموع الخشية عندما تغشاه صفات الجلال ﴿مالك يوم الدين﴾ هيبة ورهبة من جلال صفاته .

٢- تخصيص الله وحده بالعبادة ، والاستعانة به دون غيره ، لانفراده بكمال الصفات ، فلا معبود مستحق للعبادة سواه ، وليس لغيره القدرة على تلبية مطالب العباد ، فلا يُستعان بمن هو دونه .

٣- طلب العباد من ربّهم الهداية إلى الصراط المستقيم ، ليتحرروا من الأوهام والخرافات التي أحدثها أتباع الديانات السابقة بسبب تحريفهم وتبديلهم لتعاليم الدين ، ليعيش المؤمنون مظلة الولاء المطلق لسبيل النبي ﷺ ومن تبعه ، والبراءة المطلقة من كلّ سبيل أو طريق لا يتصل بمنهج الله ، ولا يستقي من نبعه الطاهر العذب.

الآثار الواردة في فضل سورة الفاتحة

وهي كثيرة أذكر منها :

أولاً : قال رسول الله ﷺ : " قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي وَإِذَا قَالَ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي فَإِذَا قَالَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ " (١)

ثانيا : عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: "كُنتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّه ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي فَقَالَ أَلَمْ يَقُلْ اللَّه ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال ٢٤) ثُمَّ قَالَ لِي لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تَقُلْ لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ) (٢)

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، رقم الحديث (٣٩٥) ؛ وسنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، رقم الحديث (٢٩٥٣)

(٢) صحيح البخاري، كتاب : تفسير القرآن ، رقم الحديث (٤٤٧٤)

ثالثا : عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: " بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلا الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلا أُعْطِيتَهُ " [1].

(١) صحيح مسلم ، كتاب : صلاة المسافرين، رقم الحديث (٨٠٦).

التفسير

﴿ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾

أول التقاء للعبد المؤمن مع كتاب الله هي الاستعاذة ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل ٩٨) أي إذا شرعت بقراءة القرآن الكريم فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

معنى الاستعاذة : هي طلب الالتجاء إلى الله عزّ وجل والاستعانة به ، للتخلص من غواية الشيطان الرجيم المبعد عن رحمة الله ، فإنّه لا يقدر عليه إلاّ خالقه ، فالذي طرده من رحمته هو القادر على طرده من حياة عباده رحمة بهم .

ما حقيقة الشيطان ؟

الشيطان مخلوق من مخلوقات الله ، وهو عالم خفي يرانا ولا نراه ، وهذا الذي أخبر عنه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ٢٧) وله تأثير بالغ في انحراف النّاس عن منهج الله ، وعن صراطه المستقيم ، وبسبب ذلك توالت التحذيرات في القرآن الكريم وفي السنّة النبويّة ، بأشكال متنوعة ، وطرائق متعددة ، لتكشف الستار عن حقيقته ، لأجل الترهيب من غوايته والتحذير من مكره وكيده .

والشيطان هو رمزا الشرّ والغواية والمعصية ، خلقه الله من جنس النّار فكان سببا في اعتراضه على أمره ، وامتناعه عن السجود له ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ

أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف ١١، ١٢، ١٣) وبفعل الشيطان هذا يكون قد ردّ الأمر على الآمر ، وهو من أخطر أنواع المعاصي التي تصدر عن جنس المكلفين ، فمعصية الشيطان لا تُقارن بمعصية آدم - عليه السلام - كما يتوهّم بعض النّاس في اعتقادهم بأنّ الفعل بينهما في المعصية مشترك ، وذلك للأسباب التالية:

أ- إنّ آدم - عليه السلام - كان يُقرّ بالعبودية المطلقة لله رب العالمين ، ولم يردّ الأمر على الآمر مثلما فعل إبليس ، وإنما غلبت عليه طبيعته البشرية ، وفترت عزيمته ، ونسي في لحظة ضعف ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه ١١٥) فكانت رحمة الله قريبة منه ، والتوبة لصيقة به ، على خلاف نوع معصية إبليس التي طُرد بسببها من رحمة الله .

ب- إنّ معصية إبليس أنشأها هو بنفسه دون تأثير المخلوقات عليه، رغبة في وقوعها ، وإصراراً على ديمومتها. أمّا معصية آدم فسببها الأول غواية الشيطان ، وخداعه له ، وفي لحظة ضعف منه أصبح فريسة لغواية إبليس ، وضحيّة لوسوسته . ومن رحمة الله عليه أن منحه سبيل النجاة والخلاص ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٣٧) فكانت تلك الكلمات مفتاح باب التوبة وقبولها ، وطريق الفلاح لآدم عليه السلام ، ومن بعده لذريّته ، وهي أوّل تجربة للسلوك الخاطىء في حياة البشر ، داخل دائرة المنهج الرباني ، يُقابلها أوّل عفو وتوبة من التوّاب الرحيم ، ليعشق المكلفون

بمنهج الله ، التوبة عند وقوعهم في الخطأ أو المعصية ، فلا يأس من رَوْح الله ، وعندها تستقيم الحياة بعد اعوجاجها ، ليعيش العبد في طهْر بعد أن شابته آثام المعاصي.

أمّا عن كيد الشيطان فهو عظيم إذا انفرد بعباد الله خارج معيته ، أمّا حين يكون العبد متصلا بالله ، مرتبطا بمدده ، متنعما بظلال عفوه وكرمه ، فإنّ كيد الشيطان ضعيف ، وفعله مبتور ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء آية ٧٦) ومن هنا فإنّ بعض الناس وقع عنده لبس في فهم خطاب الله ، فيرون أنّ كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، لأنّ الله تبارك وتعالى ذكر هنا أنّ كيد الشيطان كان ضعيفا ، وفي موطن آخر ذكر أنّ كيد النساء عظيم ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف ٢٨) والصحيح أنّ كيد النساء عظيم مقارنة بكيد الرجال ، وكيد الشيطان ضعيف مقارنة بكيد الله ، أمّا إذا قورن كيد الشيطان بكيد النساء ، فلا شكّ في أنّ كيد الشيطان أعظم ، بل هو الأصل في تحريك أجهزة الشرّ في الإنسان ، ليجعله فريسة كيده ومكره.

ومعنى الرجيم : أي المطرود من رحمة الله ، ومن دار كرامته ، قال تعالى : ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحجر ٣٤ ، ٣٥)

من هم شياطين الإنس؟

هناك نوع آخر من الشياطين غير شياطين الجنّ، وهم شياطين الإنس من أهل الغواية والضلال، فكلّ متمرد من الجنّ أو الإنس يُطلق عليه لفظ (شيطان) وهذه حقيقة دلّت عليها النّصوص الشرعيّة من القرآن الكريم والسنّة النبوية، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام ١١٢) وجاء في النّص القرآني تقديم شياطين الإنس على شياطين الجنّ لما لهم من خطر عظيم على عباد الله المؤمنين.

وفي موطن آخر قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام ١٢٨) وفي سورة الجنّ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن ٦) ومن هنا يرى بعض العلماء جواز إطلاق لفظ الشّيطان على كلّ من يفتن في الدِّين، وأنّ الحكم للمعاني دون الأسماء، ولعلّ إطلاق لفظ الشيطان على الإنسيّ من قبيل المجاز[1].

أمّا في السنّة النبوية، فقد قال رسول الله ﷺ: "إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الإِنسِ وَالْجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ"[2] يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) أنظر: فتح الباري، ابن حجر، كتاب الصلاة، حديث رقم (٤٨٧)

(٢) سنن الترمذي، كتاب المناقب، رقم (٣٦٩١) وقال عنه: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الدلالات التربوية للاستعاذة :

أولاً : في الاستعاذة تحرير للمؤمن من تأثير الشيطان عليه ، سواء في العقيدة أم في السلوك ، وهي تفتح أمامه بوابة الدخول إلى ميدان المعيّة الإلهيّة ، الذي يخشى الشيطان من اقتحامه ، لأنّه لا يستطيع الانفراد بعباد الله مادام العبد متصلاً بربّه وموصولاً بمعيّته ، وهذا كلّه يعكس جانبا إيجابيا في سلوك شخصيّة المؤمن ، ويحسّن من أدائه للتكاليف الشرعية ، فتستقيم بذلك حياته ، وتكون أكثر إبداعا في تفاعلها مع منهج الله .

ثمّ إنّ المخلوقات قد يقدر بعضها على أذى وقهر بعضها الآخر ، سواء تشابهت أجناسها أم اختلفت ، خصوصا إذا انفردت ببعضها دون معيّة خالقها، لكن لا يمكن أن يحدث ذلك الضرر لأيّ مخلوق مهما صغر إذا كان في حمى الله ، وتحت رعايته جلّ في علاه . قال تعالى : ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾ (الجن ١٣) وقال سبحانه : ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٤٠) وقال تعالى مخاطبا رسوله وحبيبه محمد ﷺ ﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكافرين﴾ (المائدة ٦٧) وأخبر سبحانه وتعالى عن نبيه وكليمه موسى عليه السلام بقوله : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى

﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ (طه ٦٧، ٦٨) وفي موطن النصر والتأييد والتمكين لعباد الله، أكّد الحقّ سبحانه دفاعه عن المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحج ٣٨)

كما أوصى رسول الله ﷺ ابن عبّاس رضي الله عنهما بقوله: "يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ"[1]

وبذلك يعيش المؤمن حياته براحة بال، وسكينة نفس، وطمأنينة قلب، فلا تراوده الأوهام، ولا تعصف به المخاوف، ولا تزعزعه الظنون والشكوك، ليبقى منارة شامخة عزيزة، لا يهن ولا يحزن ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٣٩) فهو الأعلى بإيمانه، الأثبت بيقينه، الأدوم في آماله، يعيش دينه لأجل ربّه، ودنياه لأجل آخرته، لا يخشى إلاّ ربّه وخالقه، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث (٢٥١٦) (قال عنه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ...)؛ ومسند أحمد، رقم (٢٦٦٤)

وهـذه الصـفات هـي الأفـق الـذي تسـعى التربيـة الإسـلامية إلى تحقيقه ، لأجل بناء الشخصيّة الإسلامية المثلى ، المكينة في عقيدتها ، المنضبطة بأحكام دينها ، المستقيمة على صراط ربّها .

ثانيا : للشيطان خطوات غواية حذّر منها الباري عزّ وجل بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة ١٦٨) فكما أنّ أصحاب المنهج التربوي لهم خطوات بناء متتابعة لإعداد الشخصيّة الإيمانية ، يتدرجون في تكوينها لأجل تمكينها من تحقيق كمال العبوديّة لله ، كذلك الشيطان له خطوات هدم وتدمير لعباد الله، يبدأ بالتصوّر ، وينتهي بالفعل ، وهذا الذي فعله مع أبينا آدم عليه السلام ، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى، فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه ١٢١)

وسمّاها الله (خطوات) لأنّها تقع ضمن مخطط الشيطان ومنهجه، فقد لا ينتقل بالعباد مرّة واحدة من الطاعة إلى المعصية ، كي لا يستيقظ فيهم الضمير الإيماني فيكونوا بعدها أقرب إلى التوبة منهم إلى التمادي في معصية الله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران ١٣٥ ، ١٣٦) بل يتدرّج معهم بخطوات شيطانية من أهمّها:

١- ينتقل بهم من طاعةٍ أعلى إلى طاعةٍ أدنى ، ومن فعل راجح إلى فعل مرجوح ، ومن سنّة متبعة إلى بدعة محدثة ، ومن محكم إلى متشابه ، وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صنعا .

٢- ثمّ يدخلهم في دائرة الرخص فيُسهبوا فيها ، حتّى يألفوها دون العزائم من الأحكام ، فيعيشوها حيثما وجدت ، سواء كانت أحكامها راجحة أم مرجوحة ، لأنّ الأصل في اتباعها الهوى والهوان ، وليس قوّة الدليل والبرهان .

٣- يجعل نفوسهم توّاقة إلى فعل المكروهات دون المباحات ، أو دون المندوبات والمستحبات ، على أساس أنّ تارك المستحبات وفاعل المكروهات لا يُعذّب ، إلى أن يصل بهم إلى حالة يكونوا فيها أكثر استعدادا لفعل الحرام ، وهنا يفتح لهم بابه، فلا يجدوا في أنفسهم حرجا من دخوله .

٤- ثمّ يتدرج معهم بخطوات شيطانية في دائرة الحرام من أدناه إلى أعلاه ، حتّى يألفوا فعله ، ويأنسوا بالعيش في ظلاله ، فتسوَدّ قلوبهم ، وتنطفئ شعلة الإيمان في صدورهم .

٥- وأخيرا يجعلهم في مرحلة أشدّ جرما وجحودا ، فبدل أن يألموا من فعل الحرام ، فإنّهم يألمون عندما لا يفعله النّاس ، بل يُحبّون أن تشيع الفاحشة بين العباد ، وهنا يقعوا في دائرة الوعيد الإلهي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ، وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ

الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (النور ١٩، ٢٠، ٢١)

ثالثا : لا شكّ في أنّ الغاية العظمى التي يعشقها الأب المسلم هي صلاح أبنائه ، واستقامة طريقهم لأجل مرضاة الله ، لتتواصل سلسلة الإيمان بين السابق واللاحق ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (طه ٢١) فقد يكون للشيطان أثر في تفكك حلقات السلسلة الإيمانية ، فيحرف الأبناء عن منهج الآباء ، ومن هنا فقد يسّر الله لعباده سبيل حماية أبنائهم من آثار الشيطان منذ اللحظات الأولى في عالم التكوين والنشأة ، قال النبي ﷺ : " لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا " [1] على أن لا يفهم النّاس أنّه دعاء يقوله المسلم في تلك اللحظة خارج عن أسبابه ، بل هو عنوان لموضوع إيماني تربوي ، حلقاته طويلة، يمتد مع الطفل بمراحل نموّه وتطوره . فإذا دعونا الله أن يجنبنا الشيطان ، فذلك من قبيل الطلب والرغبة والرجاء ، بشرط أن يتبع ذلك عمل وأداء ، بأن نأخذ بجميع الأسباب التي تعيننا على تجاوز تأثير الشيطان على حياتنا وسلوكنا ، في مسيرة تربوية لها أهدافها

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، رقم الحديث (٤٨٧٠) ؛ وصحيح مسلم، كتاب النكاح، رقم الحديث (١٤٣٤)

وغاياتها ومناهجها وطرائقها ، مستعينين على أدائها بالله ربّ الناس ، على أن لا يُفارقنا الشعور بالحاجة إلى تعزيز الاستعاذة دوما بخاتمة كتاب الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (سورة الناس) لتكون البداية هدفا وغاية ، والخاتمة عزما وتوكيدا ومواصلة .

ولعلّ تسميتها بسورة النّاس ، لأنّ آياتها أشدّ التصاقا بحاجياتهم ومصيرهم في معركة الاستخلاف على وجه الأرض ، التي تحدّى مسيرتها إبليس يوم أن قسم بعزّة الله على غواية عباده ، ليكون قسمه تعويقا للمستخلفين في الأرض ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكنّ الفئة التي استثنيت من وعد القسم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة ص ٨٢،٨٣) وليس الاستثناء هو لتكريم المخلصين من قبل إبليس عليه لعنة الله ، وإنّما لعلمه أنّهم في حِمى الله ، وأنّ الله غالب على أمره ، وقاهر فوق عباده .

رابعا : كانت الاستعاذة من الشيطان الرجيم ، همّ امرأة عمران بعد أن وضعت ابنتها مريم عليها السلام ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران ٣٥ ، ٣٦)

وفي هذا دلالة تربويّة عظيمة للآباء لأن يحرصوا على الأخذ بالأسباب الإيمانية لتربية أبنائهم ، وأن يكون المدخل إلى سبيل صلاحهم هو الدعاء لهم ، والاستعانة بالله على صيانتهم وحفظهم ورعايتهم ، حتّى لا يُصيبهم الشيطان بنُصْب وعذاب ، قال تعالى مخبرا عن حالة عبده ونبيه أيوب عليه السلام : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (سورة ص ٤١)

خامسا : لأجل سلامة الأبناء من أثر الشيطان ، حرص النبي ﷺ على حماية الصبيان من أن ينفرد بهم الشيطان لحظة ما ، ليحول دون تأثيره عليهم ، فلا يتوقف الأمر عند حدود الاستعاذة والذكر ، بل ينبغي أن يتخذ الآباء إجراءات عملية تربويّة في كلّ يوم وليلة ، أخذا بوصيّة رسول الله ﷺ التي قال فيها : " إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنْ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا ، وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ، وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ " (١)

كلّ ذلك لأجل أن تنطلق مسيرة التربية والتعليم دون معوقات الغواية والوسوسة بعد الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، ولتجد التعاليم الإلهيّة طريقها نحو حياة الأبناء وممارساتهم ، منهجا غير ذي عوج ، لتستقيم حياتهم ، وتنصلح أحوالهم .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأشربة، رقم الحديث (٥٣٠٠) ؛ وصحيح مسلم، كتاب: الأشربة، رقم الحديث (٢٠١٢)

﴿ بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

اتفق العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (النمل ٣٠) واختلفوا في كونها آية من الفاتحة ، أومن كلّ سورة أو خلاف ذلك ، والأقوال في هذا متنوعة[١] ، ولا مجال لسرد الخلاف هنا ، لأنّ العبرة بوجودها وغايتها أبلغ لدينا من سرد الخلاف حولها ، مع ترجيحي للقول الذي يعدّها آية من آيات الفاتحة ، وبذلك يكون عدد آياتها سبعا قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر٧٨) لقوّة أدلّتهم فيما ذهبوا إليه .

لذلك فإنّ حكم الجهر بها متفرّع عن هذا الخلاف ، لكنّ الذي يهمنا أنّ العلماء أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر بها في الصلاة .[٢]

وعن فضلها يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ : "من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فيجعل الله له من كل حرف منها جنّة من كل واحد"[٣] . حيث إنّ عدد حروف البسملة تسعة عشر حرفا.

---

(١) أنظر خلاف العلماء في : تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج١:ص١٧

(٢) أنظر: المصدر السابق ج١:ص١٨

(٣) تفسير ابن كثير ج١/ص١٨

ويرى بعض العلماء أنّ البسملة جاءت بلفظ ﴿بسم الله﴾ ولم ترد بلفظ (بالله) لأجل التبرك بأسماء الله، أو للتفريق بين التيمن واليمين، نقصد التيمن باسم الله وليس اليمين.

ولفظ الجلالة (الله) هو الاسم الجامع لصفات الكمال، وقيل إنّ (الرحمن) أبلغ من (الرحيم) فحينما يرد اسم (الرحمن) فهذا يعمّ برحمته المؤمن والكافر، أمّا اسم (الرحيم) فهو يخص في الغالب المؤمن.[1]

دلالاتها التربوية:

أولاً: إنّ البدء بالبسملة يعني الاستعانة بالله بداية كلّ أمر، وهو من قبيل التوكل على الله، لحاجة العبد إليه في قضاء حوائجه، ولأنّه سبحانه جعل في حياتنا مبدأ الأخذ بالأسباب، أمّا تحقق الفعل فلا يكون إلاّ بقدرته وتيسيره. وبقراءتها في أيّ موطن يستحضر المؤمن عظمة الله عزّ وجل، حيث إنّ أمر الخلائق مرهون بالله وحده، فهو وحده الآمر النّاهي، ولا يسع العباد إلاّ التسليم المطلق لأوامره ونواهيه، الأمر الذي يمنعهم من التسمية على كلّ فعل محرّم لامتناع ذلك عقيدة وشرعا، لأنّ العبد إذا أقبل على فعلٍ ما، وقال (بسمِ الله) فقد دخل على الفعل باسم الله الذي سخّره له، فالذبائح - مثلا - حرام أكلها من غير ذكر اسم الله، مع أنّ ذاتها واحدة بوجود التسمية أو عدمها، لكن ذكر اسم الله عند الذبح يفتح باب الحلال،

---

(١) تفسير البيضاوي ج١/ص٣٩

لأنّه سبحانه الذي أباح لنا أكلها ، فاستحضار اسمه عند الذبح يعني استحضار الحكم الذي لا يملك حقّ تقريره إلاّ الله وحده . فلا يتجاوز المؤمن حدوده بعد ذكر اسمه ، أو يخالف تعاليمه وأحكامه، وهذا الأمر ينعكس على سلوك وسيرة العارفين بالله ، الخاضعين لمطالبه ، المتصلين بأحكامه ، المتوكلين عليه ، والمستعينين به .

ثانياً : افتتح الباري عزّ وجل بها مسيرة التعليم الإسلامي عندما أمر رسوله الكريم ﷺ بالقراءة في غار حراء بقوله : ﴿ اقرأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق ١) فكان طلبه سبحانه ناشئا عن قدرته المطلقة ، بينما كان رسوله ﷺ عاجزاً عن القراءة لغياب أسبابها ، فمع أن جبريل عليه السلام جزم بالأمر وكرره ثلاث مرات ، لكنّ النبي ﷺ امتنع عن القراءة عند كلّ أمر ، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : " أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلاّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا حَتَّى فَاجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ فَقَالَ اقْرَأْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١)

فامتناع النبي ﷺ عن القراءة كان من صدقه في كشفه عن حقيقة حاله وعجزه، ولأنّه محكوم بقانون الله في حدوث الأشياء بأسبابها، وبذلك يكون طلبُ الباري عزّ وجل وفق قدرته المطلقة التي لا يحكمها شيءٌ سواه، وعدم قدرة النّبي ﷺ عن القراءة نشأ عن عجزٍ البشر من فعل الأمر دون الأخذ بأسبابه، فجاء الأمر بالقراءة مقرونا ﴿بسم الله﴾ ليكون غير الممكن ممكنا في حدوثه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ولا مانع بعد ذلك من أن تكون الوسائل التربوية والتعليمية سبيلا لتحقيق ذلك عودة إلى الربط بن السبب والمسبب ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ٣،٤،٥)

---

(١) البخاري، كتاب التعبير، رقم الحديث (٦٥٨١)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، رقم الحديث (١٦٠)

﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

بدأ الله تعالى فاتحة كتابه الكريم بعد ذكر البسملة بالحمد والثناء على نفسه لاستحقاقه كمال ذلك دون سواه ، لأنّه الربّ الخالق الرازق المتفضل بنعمه على عباده . فيكون حمد العبد الشاكر لله محاطا بسياج الربوبيّة الحافظ له ، ولا يكون كمال الحمد إلاّ لكمال المحمود .

وظاهر الآية فيها ثناء الله على نفسه ، إلاّ أنّها متضمنة في دلالتها أمره عباده لأن يثنوا عليه . ولم يذكر الباري عزّ وجل هنا وقتا أو مكانا للحمد ، وإنّما ذكره في موطن آخر بظرفه المكاني بقوله : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الروم ١٨) وبظرفه الزماني بقوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الاسراء٧٠)

وفي الحمد ثناء على المنعم المتفضل ، وشكر له على عظيم عطائه ، يقول النبي ﷺ : " الحمدُ رأسُ الشكرِ ، ما شكرَ اللَّه عبدٌ لا يَحْمَدُهُ " [١] ويقول الإمام الغزالي : "والشكر من المقامات العالية وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد وجميع المقامات ، لأنه غير مقصود لنفسه وإنما يُراد لغيره ، فالصبر يراد به قهر الهوى ، والخوف صوت يسوق الخائف إلى المقامات المحمودة ، والزهد يصرفه عما يشغله عن الله ،

---

(١) أنظر : مشكاة المصابيح، التبريزي، ج٢/ص٧١٤، كنز العمال ، المتقي الهندي ، ج٣/ص١٠٤ ، وفيض القدير ، المناوي ، ج٦/ص٧٥.

وأما الشكر فمقصود في نفسه وذلك لا ينقطع في الجنة ، فكان آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين "[1]

وما من شيء في الكون إلاّ يسبّح بحمد الله ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الاسراء ٤٤) فالحامد لله هو العبد المقرّ بكمال نعمته ، المتيقن بأنّه سبحانه مصدر كلّ نعمة في الوجود ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل ٥٣) ولا حصر لنعمته ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل ١٨)

لذا يلزم العبد المؤمن أن لا يدع سبيلاً يحقق فيه كمال الحمد إلاّ وأخذ به . فسلامة الاعتقاد بالله بكلّ صورها ، وحسن الأداء للعبادات بجميع أشكالها ، يُحققان جانباً من جوانب الحمد للمنعم المتفضّل ، إضافة إلى الحمد المتصل بالنّعم التي أنعمها الله على عباده بما رزقهم من مقومات الحياة ، وأسباب البقاء فيها . عن ابن عمر ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ : " أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ فَعَضَّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالا يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي قَالا يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ

---

(١) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ج١/ص٥٠٨

وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمَا اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا "[1]

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : " لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك كله "[2] لأن ثواب الحمد لا يفنى ، ونعيم الدنيا لا يبقى ، قال الله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَملاً ﴾ (الكهف٤٦) وهل هناك أعظم من الحمد لأن يكون رصيدا للمؤمن في سجلّ الباقيات الصالحات من أعماله .

يقول الفضيل بن عياض : " لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالا ولا أحاسب بها في الآخرة لكنت أقتذرها كما يقتذر الرجل الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه "[3] . ولعلّه أراد أن يؤكد على شدّة حذره من الدنيا لما فيها من الفتن الملهية ، ولأنّها في الغالب تشغل الإنسان عن ذكر الله ، والاستعداد للآخرة ، والتزود لأجلها .

وحمد العبد لله في الدنيا ، الثناء عليه رجاء رحمته وطلب هدايته ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أمّا في الآخرة فهو من قبيل شكره على

---

(١) ابن ماجة، كتاب: الأدب ، رقم الحديث (٣٨٠١)

(٢) كنز العمال ، المتقي الهندي، ج٣/ص١٠٣ ، و نوادر الأصول في أحاديث الرسول ، الترمذي ، ج٢/ص٢٦٧.

(٣) جامع العلوم والحكم، أبو الفرج البغدادي، ج١/ص٢٩٧

صدق وعده ، ونعيم جنّته ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر ٧٤)

وهناك فرق بين الثناء والمدح ، فتقول : حمدت زيدا على علمه وكرمه ولا تقول حمدته على حسنه وجمال صورته ، بل مدحته . والله تبارك وتعالى أهل للثناء والمدح في وقت واحد ، فهو المحمود على واسع كرمه وفضله ، قال تعالى : ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم ٣٤) وقال سبحانه : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (النحل ٥٣) وكذلك هو الممدوح لجمال أسمائه وصفاته [١] . قال تعالى : ﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف ١٨٠) وقال سبحانه : ﴿قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ (الإسراء ١١٠)

﴿ رب العالمين ﴾ : الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا . [٢] وكلمة الرب في اللغة تُطلق على السيد المربي والمتصرف في الأمر . ومنه قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف ٤٢)

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ج١/ص٤١، ٥١

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ج١/ ص ٥١، ٥٢

وفي حديث النبي ﷺ عن علامات الساعة عندما سأله جبريل عنها ، وهو الحديث المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب ﷺ قال ﷺ : "إذا ولدت المرأة ربّتها" [1] وورد بلفظ "أن تلد الأمة ربّتها" [2] أي سيدتها. فالله عزّ وجل لم يخلق الخلق ثمّ يتركهم ، إنّما تعهدهم بالرعاية والحفظ والتربية .

و لفظ (العالمين) يشمل في معناه كلّ موجود سوى الله تعالى [3] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ رَبُّ السماوات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الشعراء ٢٣ ، ٢٤) فهو المربي لجميع العالمين ، بخلقه لهم وإعداده لهم ، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة التي لو فقدوها لم يمكنهم البقاء ، فما بهم من نعمة فمنه تعالى ، وتربيته تعالى لخلقه نوعان عامة وخاصة ، فالعامة : "هي خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا" والخاصة هي : "تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكمله لهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه ، وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا المعنى هو السر في

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن، رقم الحديث (٤٤٩٩)

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، رقم الحديث (٨)

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي، ج١/ص١٣٩

كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة" [1]

وأخيراً: فإنّ الحمد المتصل بتوحيد الربوبية المطلقة لله تعالى، يجعل أتباع الدين الإسلامي أظهر في دائرة التميّز العقدي، وأقدر على مواجهة الفوضى الاعتقادية التي تسود العالم بسبب بعدهم عن الوحي الإلهي، أو بسبب تحريفهم له، وهذا الذي وقع من قبل، ثمّ استمرّ بعد ذلك بأشكال مشابهة أو مختلفة، سواء في أوساط أهل الشرك حيث دعواهم في تبرير عبادتهم للأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر ٣) أو في أوساط المنحرفين عن منهج الله من أهل الديانات السابقة الذين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة ٣١)

دلالاتها التربوية:

أولاً: في توحيد الربوبية تخفيف على العباد من زحمة الأرباب المتفرقة، الباعثة للحيرة والشكّ في خضمّ تعددها، وتفاوت مطالبها، وتباين مراتبها. قال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون ٩١) وهذا الفساد في الاعتقاد يُحدث خللاً كبيرا

---

(١) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ج١:ص٣٩

في صياغة الأهداف التربوية واستقرارها ، وكذلك في تقرير المناهج المتصلة بها ، بسبب المفارقات الهائلة في ميدان الفكر البشري ، حيث تخيّم الأوهام ، وتسود الظنون ، ويتفاقم الشك في مصداقية القيم التربوية المتمخضة عن أصل العقيدة التي انحرفت وفسدت بسبب الشرك بالله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء ٢٢)

ثانياً : إنّ الإيمان المطلق بصفة الربوبيّة ، يجعل جميع الخلائق في دائرة واحدة، لأنّها جميعا من صنع الله ، ولا غرابة من أن تنشأ بينها صلة إيمانية من نوع معين ، فلا نُريد أن نبعد في تقرير الحقائق دون تعزيزها بصحيح الدلائل عن رسول الله ﷺ ، فعن أَنَس بن مالك ﷺ قال : "خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ رَاجِعًا وَبَدَا لَهُ أُحُدٌ قَالَ هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ" [1] ليعبّر عن حقيقة المشاعر الإيمانيّة المتوهجة التي لم يُخفها النبي ﷺ رغم غرابتها في ظاهر أمرها ، كما لم يكتم ذلك الجذع من النخل الذي كان يخطب من فوقه رسول الله ﷺ يوم الجمعة في مسجده ، مشاعره وأحاسيسه نحو أنيسه وحبيبه المصطفى محمد ﷺ فانطلقت منه نغمات الحزن والحنين بعد أن غادره النبي ﷺ ليرتقي منبره الجديد . فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قال : "كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَكَانَ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم الحديث (٢٧٣٢) ؛ وصحيح مسلم، كتاب الحج، رقم الحديث (١٣٩٣)

عَلَيْهِ فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ (من الحنين) حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ "[1]. وفي رواية أنّ النبي ﷺ قال بعد أن احتضنه : "لو لم أحتضنه لحنّ إلى يوم القيامة"[2]

لتدلّ هذه الآثار وغيرها ممّا لا يتسع المجال لسردها ، على حقيقة العلاقة الإيمانيّة بين العابدين لله ، المسبحين لعظمته ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الاسراء ٤٤) الساجدين له وحده ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج ١٨) على الرغم من تباين السمات والصفات والخصائص . وهذا الاعتقاد يعزز سمة الشموليّة في الفكر التربوي الإسلامي ، فلا يقف أصحابه عند حدود الملموسات والمشاهدات فحسب ، بل ينبغي الانبساط في ظلال القيم التربويّة الإيمانيّة التي أضفتها عقيدة الإسلام ، ليكون العقل البشري في متسع من النظر والقياس والاستنتاج ، وبالتالي يكون أقدر على التحديث والتجديد في مظلة النهج الإلهي ، وأمكن في التفاعل مع معطيات

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب ، رقم الحديث (٢٣٩٢) ؛ وسنن الترمذي ، كتاب الجمعة ، رقم الحديث (٥٠٥) والعشار هي: الحوامل من الإبل التي قاربت الولادة (انظر: فتح الباري ، ابن حجر، ج٢/ص٤٠٠)

(٢) ابن ماجة ، كتاب إقامة الصلاة والسنّة فيها ، رقم الحديث (١٤١٥) ؛ والإمام أحمد، المسند ، رقم الحديث (٢٣٩٦)

الحياة بكلّ جوانبها الإيجابية ، وأقوى في مواجهة ومعالجة سلبياتها من غير إفراط أو تفريط . وفي ظلّ هذا الاعتقاد فإنّ عناصر الكون تكون جميعها متساندة وليست متعاندة ، وهي بالنسبة للمؤمن باعث أنس وراحة وسعادة ، وبوجودها تكتمل مقومات استخلافه في الأرض ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان ٢٠)

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

قال عبد الله بن عباس ﷺ : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ، أي أكثر رحمة .[١] وعن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ "من لم يَسْأَلْ اللَّهَ يَغْضَبْ عليه" [٢] وعن عبد الله بن المبارك قال : "الرحمن إذا سئل أعطى والرحيم إذا لم يسأل يغضب"[٣] فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير ، والرب تعالى كلما سألته رضي عنك وأحبك ، والمخلوق كلما سألته هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك ، ويقال أحب الناس إلى الله من سأله ، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم .

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج١:ص١٩

(٢) سنن الترمذي، كتاب : الدعوات، رقم الحديث (٣٣٧٣)

(٣) عمدة القاري، العيني، ج١٨/ص٧٩؛ تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله، ج١/ص٢٥

قال الشاعر:

لا تسألن من ابن آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسئل يغضب [1]

والله رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، لأن رحمته في الدنيا تعم المؤمن والكافر ، وفي الآخرة تخص المؤمن .

أمّا عن تلازم الصفتين (الرحمن الرحيم) مع لفظ الجلالة (الله) فيرى بعض العلماء أنّ الله وحده المختص باجتماع هاتين الصفتين . فمن الجائز أن يوصف عبد من عباد الله بأنّه رحيم ، حيث وصف الله نبيّه بذلك في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة ١٢٨) لكن من الممتنع من النّاحية الإيمانيّة أن يوصف عبد من عباده بأنّه رحمان. [2]

يروي النبي ﷺ عن ربّه عزّ وجل فيقول : " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا اللَّهُ وَأَنَا الرَّحْمَانُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ " [3]

---

(١) انظر: مدارج السالكين، محمد بن أبي بكر الزرعي، ج٢/ص١٣١، والمستطرف ، أبو الفتح الأبشيهي، ج٢/ص١١٦

(٢) انظر تفسير: في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، تفسير الفاتحة.

(٣) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة ، رقم الحديث (١٩٠٧)؛ وسنن أبي داود، كتاب الزكاة ، رقم الحديث (١٦٩٤)

وفي الآية ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ وصف الله نفسه بأنه الرحمن الرحيم ، بعد أن وصف نفسه بأنّه ﴿رب العالمين﴾ وهي من قبيل الجمع بين الترهيب والترغيب ، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه ، والرغبة إليه ، وهذا أعون على طاعة الله ، وأمنع لمعصيته [1] ، كما قال تعالى : ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمِ ﴾ (الحجر ٤٩، ٥٠) وقال سبحانه : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرِ﴾ (غافر ٣)

وعن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال : "لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ " [2] وزاد الإمام أحمد في روايته : "..خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَوَضَعَ رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ رَحْمَةً" [3]

---

(١) أنظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١:ص١٣٩

(٢) صحيح مسلم، كتاب: التوبة ، رقم الحديث (٢٧٥٥) ؛ وسنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم الحديث (٣٥٤٢)

(٣) مسند أحمد، باب: باقي مسند المكثرين، رقم الحديث (٨٢١٠)

دلالتها التربوية :

(الرحمان) و (الرحيم) صفتان من صفات الله عزّ وجل ، تعززان الثقة المطلقة في قدرته سبحانه على تلبية جميع حوائج العباد ، فكما حمدناه لأنّه ربّ العالمين ، نحمده كذلك لأنّه رحمان ورحيم ، نحمده في اليسر والعسر ، في السقم والعافية ، في الفقر والغنى ، في الخير والشر ، قال رسول اللهِ ﷺ : "عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ان أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ له خَيْرٌ ليس ذلك لأَحَدٍ الا لِلْمُؤْمِنِ ان أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وكان خَيْرا وان أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وكان خَيْرا" (١)

وظلال رحمته يتسع ليشمل جميع خلائقه ، وجميع حوائجهم ، من غير عجز ولا نقص ولا نفاذ . فديننا دين رحمة ، للعالمين بعموميته ، وللمؤمنين بخصوصيته، وحينما نرى خلاف ذلك ، فلنعلم أنّ الخلل قد وقع ، إمّا في التصور أو في الأداء ، عندها ينبغي أن نعيد جميع موازين البشر إلى ميزان واحد ، هو ميزان ربّ البشر ﴿الرحمان الرحيم﴾ العادل في أحبابه وأعدائه ، في أهل طاعته وأهل معصيته.

وفي صفتي (الرحمان الرحيم) ظلال وافر لمن أراد أن يستظلّ بهما ، وكفايةٍ للطالبين رحمته ، والسائلين كرمه ، والمستعينين بقدرته ، خصوصا إذا بعدت عليهم الشقّة ، ونأت بهم قسوة الحياة ، وأقلقهم المصير المجهول ، فبمنهج الله يمضي العباد ليأنسوا مسيرة الحياة ،

---

(١) مسند الإمام أحمد، ج٤/ص ٣٣٣

وطمعاً في رحمته يتهيأ العاملون لما بعد الموت ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات ٦١) ليشمل الهدف التربوي متطلبات الدنيا والآخرة من غير إفراط ولا تفريط، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص ٧٧)

وهذا التصوّر يعزز في النفس الإيمانيّة الثقة الكاملة بكفاية المصدر، وسلامة المورد، فلا ينبغي الاستطراد فيما وراء ذلك، خصوصاً في ميدان التربية والتعليم، كما يذهب بعض المفكرين إلى إيجاد التزاوج بين العقائد وإن تباينت، وبين المناهج وإن تباعدت، والعزم على إحداث التساند بين المتضادات، والتواد بين المتنافرات، والمزج بين المتغايرات، كلّ ذلك على حساب مقدرات الأمّة من منهج الله تعالى، ونصيبها من رحمة الله، وليس هناك أبلغ من خطاب الله تعالى في مواجهة ذلك، حيث يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (العنكبوت٥١، ٥٢)

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

المالك هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه "يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين وهو يوم القيامة، يوم يُحاسب الناس فيه على أعمالهم، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور، كمال ملكه

وعدله وحكمته وانقطاع أملاك الخلائق ، حتى إنه يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار كلهم مذعنون لعظمته ، خاضعون لعزته ، منتظرون لمجازاته ، راجون ثوابه ، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر ، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام ".[1]

وكذلك فإنّ إضافة الملك ليوم الدين ، لأنه لا يدّعي أحد هنالك شيئا ، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه سبحانه جلّ في علاه ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ ٣٨) وقال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ (طه ١٠٨) وقال : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (هود ١٠٥)

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " يقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ "[2] وعنه أيضا عن النبي ﷺ قال : "إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ ، لا مَالِكَ إِلاّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ" [3] وعنه ﷺ كذلك قال : " أَغْيَظُ

---

(١) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمان السعدي، ج١:ص٣٩ (بتصرف يسير) ، وأنظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج١:ص ٢٥،٢٦

(٢) صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، رقم الحديث (٤٥٣٤) ؛ وصحيح مسلم، كتاب: صفة القيامة والجنّة والنار، رقم (٢٧٨٧)

(٣) صحيح البخاري ، كتاب: الآداب، رقم الحديث (٥٨٥٣) ؛ وصحيح مسلم، كتاب: الآداب، رقم الحديث: (٢١٤٣) . واللفظ لمسلم.

رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ لا مَلِكَ إِلاَّ اللَّه "[1]

وربما يقول قائل : كيف قال الله تعالى : ﴿مالك يوم الدين﴾ ويوم الدين لم يوجد بعد فكيف يصف نفسه بمالك يوم قبل أن يوجد ؟ والجواب على ذلك هو: أنّ الوعد الإلهي واقع لا محالة في ذلك ولا ريب ، حيث لا عبرة بالزمن في تحقق وقوعه في ميدان القدرة الإلهيّة المطلقة ، فقدرة الله على إحداث الأمر واحدة ، سواء كان في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل ، وحديثه عن أمر مضى مثل حديثه عن أمر سيقع في المستقبل ، لأنّه سبحانه ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس٨٢) ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام ٧٣) فالله عزّ وجل يملك الأمر الذي وقع ، ويملك ما هو واقع الآن ، ويملك ما سيقع في مستقبل الزمان ، في أيّ مكان كان .

(يوم الدين) اليوم عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما ، وقد يطلق اليوم على الساعة منه كما قال الله تعالى : ﴿ اليومُ أكملتُ لكم دينَكم ﴾. (المائدة ٣)

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الآداب، باب: الآداب ، رقم الحديث (٢١٤٣) ؛ ومسند أحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، رقم الحديث (٢٧٣٩٣)

و(الدين) هو الجزاء على الأعمال والحساب. قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور ٢٥) أي حسابهم. وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر ١٧) وقال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (الصافات ٥١- ٥٣) أي مجزيون محاسبون.[١]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ شاهد على هذا المعنى، وفيه يقول: "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ"[٢] أي حساب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسبه الله يوم القيامة.

ويُروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنّه قال: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا" قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة ١٨) وكذلك يُروى عن ميمون بن مهران أنّه قال: "لا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ"[٣]

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١:ص١٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج١:ص٢٦.

(٢) سنن الترمذي، صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث (٢٤٥٩) (وقال عنه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ).

(٣) المصدر السابق.

وفي الآية قراءة أخرى بلفظ ﴿مـلِك يوم الدين﴾ بكسر اللام، فالمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء من الملك، والملك هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من الملك[1].

ودلالة القراءتين، الجمع بين الملِك المطلق والحكم المطلق لله وحده، لأنّ المالك يملك وقد لا يحكم، والمَلِك يحكم وقد لا يملك، وبما أنّ الله عزّ وجل له الملك والحكم، فهو مالك ليوم الدين، ومَلِك يوم الدين، بلا شريك أو منازع.

ومُلْك الله ليوم الدين يعني انفراده بالتصرّف المطلق في أمر الخلائق التي تفد إليه فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر ١٦) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار ١٩)

وفي ظلال هذا الاعتقاد، لا مناص للعباد من اختيار صائب في العقيدة والعبادة، ليكون أمرهم أقرب إلى برّ الأمان، منه إلى حافّة الهاوية.

دلالاتها التربوية:

أولاً: إنّ الذي يؤمن بيوم الدين، يكون أقدر على خوض صراع التجاذب بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، وعلى الموازنة بين عناصرهما، فالاعتقاد الجازم بعالم الآخرة سلاح المؤمن في معركة

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، ج١/ص٥٤-٥٧

الريب التي تعصف بالبشرية في ظلّ غياب اليقين ، وفي ظلّ زعزعة العقائد في نفوس البشر عندما تبعد عن منظومة العقيدة التي أرسى قواعدها الوحي الإلهي.

ولأجل أن تكون حركة العباد في الحياة متناسقة في خطواتها ، متناغمة في عناصرها ، خاضعة لسنن الله الكونية والشرعية ، لابدّ أن يكون مبدأ التوازن بين مطلبي الدنيا والآخرة منطلقا نحو فاعلية العباد في إطار منهج تربوي فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المؤمنون ٧٧) ليبقى نصيب الآخرة هو الابتغاء (وابتغ) ونصيب الدنيا هو التذكر (ولا تنس) واجتهاد العباد بين مراد المطلبين شرطه أن لا يطغى أحدهما على الآخر ، وفي ضوء هذه النظرة المتوازنة تُصاغ الأهداف التربوية ، والمناهج المناطة بها ، من غير إفراط ولا تفريط .

ثانياً : إنّ الاعتقاد المطلق بملك الله ليوم الدين يعمّق الشعور بالحاجة إلى رحمة الله خصوصاً في ذلك اليوم ، لأنّ الغنيّ والفقير فيه سواء ، فالكلّ مجرّد من التملك وأسبابه . وهذا الشعور يخفف من معياريّة التفاضل بين النّاس في الدنيا على أساس التفاوت بين الفقراء والأغنياء ، أو بين الحاكم والمحكوم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات ١٣) وقال النبي ﷺ في خطبته في الحج وسط أيّام التشريق : "يا أَيُّهَا الناس ألا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ إلا لا فضْلَ لعربي على أعجمي وَلا

لعجمي على عربي وَلاَ لأَحْمَرَ على أَسْوَدَ وَلاَ أَسْوَدَ على أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى "[1]

كلّ ذلك يخفف من الرغبة الجامحة في حبِّ التملك والسلطان. فالملك والحكم لا يدومان لأحد، والنّاس جميعا أمناء على ملك الله وعلى عباد الله، فالمسئولية هنا تكليف لا تشريف، وهذا الشعور يجعل الشخصيّة الإسلاميّة أقرب إلى التحرر من أنانيّة الذات، وتغليب مصالحها، ليكون المرء أقلّ رغبة في استعباد النّاس، سواء في سلطان المال أو الجاه أو الحكم.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾

عندما يتلو العبد في الصلاة ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ مالك يوم الدين﴾ فإنّ فكره يجوب في مقام الغَيْب، فإذا ذكر ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كأنّه ينتقل من ميدان الغَيب إلى مقام الحضور، لتعلو درجاته، ويزداد قربه من مولاه وسيده. ولهذا عندما سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ عن الإحسان، قال له ﷺ: " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك "[2]

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج٥/ ص٤١١، مجمع الزوائد للهيتمي ج٣/ص٢٦٦

(٢) انظر تمام الحديث في: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، رقم الحديث (٥٠)؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم الحديث (٨)

ولأهميّة هذه الآية يقول بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [1]

وتقديم العبادة على الاستعانة هنا هو من باب تقديم العام على الخاص ، واهتماما بتقديم حق الله على حق عباده . وكذلك من قبيل تقديم الوسيلة على طلب الحاجة ، وهذا أدعى للقبول والإجابة . وكذلك لتكون جميع عناصر العبادة والاستعانة محصورة لأجل الحقّ وحده دون سواه . فلو قلنا (نعبد إيّاك) لكان من المحتمل أن تُصرف وجهة العبادة لغير الله ، وهذا ممتنع في حقّ الله سبحانه . وقيل الواو للحال والمعنى نعبدك مستعينين بك . [2]

ومعنى : ﴿إياك نعبد﴾ أي نخصّك وحدك بالعبادة والطاعة ﴿وإياك نستعين﴾ نطلب منك وحدك العون والتأييد والتوفيق. فالفخر أن نكون عبادا لله ، والمذلة بخلافها ، يقول علي بن أبي طالب ﷺ : " كفى بي فخرا أن أكون لك عبدا وكفى بي شرفا أن تكون لي ربا " [3] .

وجاء لفظ الخطاب بـ (إيّاك نعبد) ولم يرد بلفظ (إيّاه نعبد) للدلالة على أنّ المعبود - وهو الحقّ سبحانه - حاضر في الذهن والفؤاد، لا يغيب حضوره عن ميدان العبادة والاستعانة .

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج١/ص٢٦

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ج١ /ص٦٩،٧٠، وتفسير السعدي ج١/ص٣٩

(٣) التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي، ج١/ص٢٠٣

وورد الخطاب بصيغة الجمع (نعبد) للتوكيد على جماعيّة العبادة والوجهة والاستعانة، وللدلالة على أهميّة الجماعة في صيانة وحماية وتعزيز عبادة الفرد داخل مجموعته، ثمّ شموليّة البركة والرحمة الربانيّة لعباد الله المجتمعين على ذكره وطاعته. يقول النبي ﷺ: "قال ما اجْتَمَعَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ الا حَفَّتهُمُ الْمَلائِكَةُ وَتَغَشَّتهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَه"[1]

الدلالات التربوية:

أولاً: أفاد التخصيص في ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ الحصر المطلق للعبوديّة والاستعانة، وهي غاية عظمى يسعى إليها أصحاب الفكر التربوي الإسلامي، لأنّه في ظلّ هذا الاعتقاد تتحرّر مسيرة الفكر الإسلامي من الأوهام والخرافات التي تنشأ خارج هذا المعتقد، ومن قلق الحيرة حينما لا تكون الاستعانة بالله سبحانه، فلا خضوع إلاّ لله، ولا تذلّل لأحد سواه، ولا سجود إلاّ لعظمته سبحانه، فالله ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد ٣) وفي ظلّ هذا الاعتقاد تكون الشخصيّة الإيمانية أكثر استقرارا، وأشدّ تثبيتا، وأقدر على مواصلة طريق الحياة في ظلال منهج الله بكلّ ثبات ويقين، حيث لا يعتريها ضعف، ولا يُفزعها قلق، ولا يغشاها ريب.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٣/ص٩٤

قـال الله تعـالى : ﴿وَلاَ تَهِنُـوا وَلاَ تَحْزَنُـوا وَأَنـتُمُ الأَعْلَـوْنَ إِن كُنـتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٣٩)

ثانيـاً : كـون أنّ الله تعـالى وحـده هـو المعبـود ، فيـه جانـب تـرغيبي ، فهناك فرق بين عبوديّة الإنسان للإنسان ، وبين عبوديّة الإنسان لله ، فعبوديّة الإنسان للإنسان بغيضة ، لأنّها تُعطي خير العبد لسيّده ، أمّا عبوديّة الإنسان لله فهي محبوبة ، لأنّها تُعطي خير الله لعبده ، ويُعدّ هذا الترغيب من الحوافز الهامّة نحو تحقيق الهدف التربوي الشامل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٦)

ثالثـاً : تـورث العبوديّـة لله حريّـة للمكلفـين ، علـى خـلاف عبوديّـة البشر لبعضهم ، التي تُورث لهم المذلّة والمهانة ، فالذي يكون عابداً لله ، ينطلق بحريّة العبوديّة في آفاق الكون والحياة ، لا يخشى ولا يخاف أحـداً مـن الخلـق ، ولا يخضـع لسـلطان غـير سـلطان الله ، ولا يرضـى بحكم غير حكم الله ، وبذلك يتحرر الإنسان عقيدة وسلوكا من ذلّ العبودية لغير الله ، وهذا هدف تربوي سامي ، ليكون الله وحده الأمل المنشود ، والغاية العظمى.

ولعلّ في موقف السحرة مع فرعون لحظة انفجار بركان الإيمان في صدورهم خير شاهد على تصور المساحة الشاسعة بين شخصيتين وعقيـدتين وسـلوكين ، كلّهـا انبعـث مـن ذات واحـدة ، لم تتغيّـر في شكلها ولا في هيئتها ، وإنّما تغيّرت بعقيدتها وتصورها وولائها ، قبل لحظات كان سقف إيمانهم ربّهم الأعلى في زعمه ، الأدنى في حقيقته ، فرعـون ، رمـز الطغيـان في الأرض ، وبعـد لحظـات يتبـدل الموقـف ،

وتجري الرياح بما لا تشتهي سفينة فرعون ، فيجد الإيمان بالله ، الأعلى في حقيقته ، طريقه إلى قلوب السحرة ، وإذا بالعالم يقف أمام رمز التحدي لطاغية الأرض ، وأمام ملحمة إيمانية ، انتصرت فيها قيم الحقّ الثابتة الباقية ، على قيم الباطل الزائلة الفانية ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ (الرعد ١٧)

ومشهد الصراع بين الحقّ والباطل ، يصوّره الباري عزّ وجل بقوله : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه ٦٥- ٧٣) فلا إيثار للزائل على حساب الباقي ، ولا للذلّ على حساب الكرامة . إنّه لمشهد حيّ متجدد ، يحكي لأجيال الإيمان ملحمة انتصار اليقين على الريب ، والإيمان على الكفر ، والحقّ على الباطل .

فما أحقر الحياة إذا كان الذلّ ثمن العيش فيها ، وما أكرم الموت إذا كان ثمنا لكرامة النفس وعزّتها ، فكم من حيّ يعيش ميتا ، وكم من ميت يعيش حيا ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران ١٦٩)

رابعاً : ما دمنا قد خصصنا الله وحده بالعبادة ، فلا مفرّ من حتميّة الصراع الموصول بأسبابه بين أهل الحقّ ، جماعة ﴿ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ الذين يرغبون أن يكون الدين كلّه لله - وهذا حقّ له سبحانه- وبين أهل الباطل جماعة ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص ٣٨) الذين يرغبون أن تكون العبادة لغير الله لينتزعوا حقّ الله على العباد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٦) وفي ظلال هذا الصراع تزداد حاجتنا إلى الله لنستعين به ، خصوصا إذا ضعفنا في ميدان المواجهة بسبب بشريتنا وتأثير سماتها ، لذا يلزم أصحاب الحقّ أن يعيشوا مراحل الصراع بثقة عالية دون كلل أو ملل، ليُعيدوا الحقّ إلى صاحبه ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاتَكُونَ فِتنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للّه ﴾ (الأنفال ٣٩).

وهذا الصراع بكلّ مراحله يقتضي أن يسبقه إعداد تربوي للقاصدين سبيل الله ، لأن يستوفوا مراحل التكوين قبل التمكين ، لتكون التربية الإسلاميّة بشموليتها لجميع ممارسات العباد ، سابقة لمرحلة الجهاد ، خصوصا وأنّ أخلاقيات المجاهد تُشكّل جزءا كبيرا من نتائج النصر والتمكين ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج ٤١).

ومن هنا ينبغي على الأمّة التي تنشد التمكين لدين الله في الأرض ، وأن تأخذ بأسبابه ، وأهمّها : التكوين والإعداد ، فبين التكوين والتمكين مسيرة طويلة وشاقّة ، لا يُدرك غورها إلاّ من عرف حقيقة نواميس الله في نصرة عباده . وشاء الله أن يضرب لنا مثلين ظاهرين ، هما :

١- عن أحوال بني إسرائيل أيّام موسى عليه السلام ، حيث مكنهم الله بمعجزات عظيمة ، لكنّ تكوينهم التربوي ، وإعدادهم السلوكي ، لم يكن بالمستوى المطلوب الذي يُقابل نِعم المنعم ، وكرامة المكرم ، بالحمد والشكر اللازمين ، قال تعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص آية ٥، ٦) ثمّ بدأ بعد ذلك تكوينهم وإعدادهم في سلسلة شاقة وطويلة أرهقت كاهل نبي الله موسى عليه السلام ، وقد تنوعت صورها في القرآن الكريم حيث لا يتسع المقام لذكرها ، أوشكت نهايتها في ذلك الموقف العصيب عندما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة ، وفي ذلك يقول الحقّ تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ

فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة ٢٠-٢٦)

فكانت حصيلة المسيرة الهائلة في زمنها وأحداثها، أن هتفوا ﴿اذهب أنت وربك..﴾ ليكون بعدها عزاء موسى عليه السلام، النبي المبتلى بقومه (بني إسرائيل) تلك الصرخة التي تضمنتها مناجاته لربّه في ساعة العسر ﴿قال ربي إنّي لا أملك..﴾

٢- عن واقع أمّة محمد ﷺ التي تكونت في مسيرة إعداد تربوي وعقدي استمرت (١٣ سنة) على أرض مكة، وبجوار بيت الله العتيق، وفي ظلال وحيه، قبل أن تتمكن في أرض الدولة والدعوة، في مدينة المصطفى ﷺ، لتكون الهجرة هي الحدّ الفاصل بين التكوين والتمكين، فأكرمها الله بأن تكون خير أمّة أخرجت للنّاس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران ١١٠) وهي القدوة لكلّ تجمّع إيماني تشهده البشرية حتى تقوم الساعة.

خامساً: إنّ عقيدة ﴿إيّاك نعبد وإياك نستعين﴾ في بعدها التربوي، خير سبيل إلى تحرير العباد من وحشة الأساطير والخرافات.

فالمخلوق لا يخشى سوى الخالق ، وكلّ قوّة في الوجود إنّما هي من صنع وتقدير الباري عزّ وجل ، فعلى المؤمن أن يتعرّف عليها ليسخرها ما أمكنه لتحقيق استخلاف الله له في الأرض. ومن هنا فلا يجوز لنا أن نعتقد بما قاله أهل الإلحاد من أنّ الطبيعة هي القاهرة فأطلقوا عبارة (قهر الطبيعة) على بعض الظواهر والأحداث الكونيّة. وإنّما عقيدتنا هي أنّ الله هو ربّ العالمين ، له وحده القوّة القاهرة ، سخّر كلّ مخلوقاته، ومن بينها الطبيعة ، لتكون رهينة إرادته ومشيئته ، ومن ثمّ جعل فاعليّة الوجود لكلّ مخلوقاته متساندة وليست متعاندة ، يكمّل بعضها بعضا ، وهذا التصوّر ضروري لأنّ يكون جزءاً من قاعدة بناء المناهج التربويّة ، ومن ثمّ تعزيز الوسائل ضمن هذا الإطار لتحقيق أفضل النتائج وأشملها.

سادساً : ﴿إيّاك نستعين﴾ تمثّل أساس المنهج الحركي لمسيرة التعليم في الإسلام ، فالذي يطلب المعونة من الله يلزمه أن يستنفذ أسبابها ، قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال ٦٠) فلم يطلب الله المثليّة في الإعداد ، وإنّما طلب المستطاع منه ، ليبلغ العبد المؤمن الأسباب المناسبة لمصاحبة المعيّة الإلهيّة ، فالأخذ بالأسباب وسيلة القاصدين سبيل الحقّ، والمعية الإلهية ثمرة لطاعة أصحابه وتمام عبوديتهم ، وبذلك تتحقق النتائج التربويّة بتأييد الله وعونه.

﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾

الصراط هنا بدل من الصراط المستقيم في الآية السابقة ، ومعناه : دلنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم ، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته ، وهو معرفة الحق والعمل به ، ثمّ أدم هدايتنا عليه ، فإن الإنسان قد يُهدى إلى الطريق ثم يُقطع به . وقيل : الصراط المستقيم هو القرآن الكريم ، وقيل هو الإسلام ، والمؤدّى في النهاية يصبّ في ذات الدلالة ، أي طريق الحقّ الذي ارتضاه الله لعباده ، والذي بيّنه في كتبه التي أنزلها ، وبرسله الذين بعثهم . ووصفه الله بالاستقامة لأنه صواب لا خطأ فيه ﴿ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت ٤٢) وفي قوله تعالى : ﴿اهدنا الصراط﴾ تشمل جانبين ، الأول غاية هداية ، أي : (اهدنا إلى الصراط المستقيم) وتعني : لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران ٨٥) والثاني بيان هداية ، أي : (إهدنا بالصراط المستقيم) . أي بما فيه من تفاصيل تشمل دلالاته وأحكامه وتعليماته ، علما وعملا . قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى ٥٢) وهداية الصراط المستقيم أنواعها كثيرة ، من أهمّها:

١- الاهتداء إلى ما يفرّق به الإنسان بين الخير والشر بغية الاختيار بينهما . قال تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد ١٠) وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ

فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (فصلت ١٧)

٢- هداية بيان ودلالة، وهذا متحقق بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لقوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة ٢٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء ٩) وقوله عزّ وجل لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى ٥٢)

٣- هداية توفيق، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص ٥٦) وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت ٦٩) وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام ٩٠) وطلب الهداية هنا إمّا رغبة بتحققها، أو زيادتها، أو الثبات عليها، أو علو مراتبها.

وهذا الدعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ من أجمع الأدعية وأنفعها في حياة المؤمن، ومن عظيم هذا الدعاء أنّ الباري عزّ وجلّ يوجّه عباده إليه، فأعظم الأدعية في القرآن الكريم تلك التي اختصّت بطلب الهداية واستقامة الطريق، وأعظم الطرق المستقيمة هو سبيل المؤمنين الذين أنعم الله به عليهم، خلاف سبيل المغضوب عليهم الذين حرّفوا وبدّلوا.

ولأجل تحقيق كمال العبوديّة والتوكّل لا بدّ من وضوح سبيل الهداية ، ومن ثمّ بلوغ استقامة الطريق ، وليس بالإمكان تحقيق ذلك من غير صراط الله المستقيم الذي ارتضاه الله لأمّة محمّد ﷺ دون غيرها . وجاء أسلوب اختيار الصراط المستقيم بصيغة الطلب والدعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لإعلام العباد أنّ مصدر الهداية هو الله ، وطالب الهداية إنّما يعبد الله بطلبه واختياره لها ، كما جاء وصف الصراط بالمستقيم للترغيب في اختياره ، وذلك لسببين :

الأول : أنّه من عند ربّ العالمين الرحمن الرحيم ، حيث يستحيل من كانت هذه صفاته أن يختار لعباده طريق الشقاء والعذاب .

الثاني : كون الصراط مستقيماً يجعل اختياره عند أهل الذوق السليم من الأمور البدهيّة التي لا يختلف فيها العقلاء . وحتّى لو لم تكن هناك آخرة - كما يدعي الجاحدون المنكرون - فيكفي البشريّة ربحاً أنّ حياتها تستقيم بهذا الاختيار كونه مستقيماً غير ذي عوج .

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

أي : طريق الذي أنعم الله عليهم من الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء ٦٩)

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ : أي غير صراط الذين غضب الله عليهم من الأمم السابقة ، الذين ضلّوا عن سواء السبيل ، واتبعوا

أهواءهم ، وحرّفوا وبدّلوا وغيّروا . وقيل: ﴿المغضوب عليهم﴾ المشركون، و ﴿الضالين﴾ المنافقون . وقيل المغضوب عليهم باتباع البدع والضالين عن سنن الهدى .[1]

وفي الآية تحذير للأمّة المسلمة من اتباع سبيل المغضوب عليهم والضالين ، وهذا ما وعد النبي ﷺ بحدوثه عندما تتردّى الأمّة وتنحرف عن منهج الله . فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ.."[2]

الدلالة التربويّة للآيتين السابقتين :

أولاً : إنّ توجيه العباد في الدعاء لطلب الصراط المستقيم ، ثمّ لتحديد نوع الصراط ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ المغاير والمخالف لصراط الذين حرّفوا وغيّروا ممن سبقونا من الأمم ، فيها دلالة على رغبة الحقّ سبحانه في إيضاح طريق المؤمنين ، وتحريرهم من تبعيّة المغضوب عليهم والضالين ، ليكون أساس تكوين المنهج التربويّ الإسلامي هو وحي الله سبحانه ، وأيّ اقتباس في مكونات مناهج التربية الإسلاميّة يجب أن يخضع لضوابط العقيدة الإسلاميّة ، ومحددات الشريعة ، وذلك لتعزيز مبدأ الولاء والبراء ، لعلمه سبحانه

---

(١) أنظر: تفسير الجامع الكبير، القرطبي ج١:ص١٥٠

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٢٦٩) ؛ وصحيح مسلم، كتاب العلم، حديث رقم (٢٦٦٩)

أنّ فتنة الأمّة ستكون في المغضوب عليهم ، وفي الضالين ، وسيكون لهم نصيب كبير في تغيير معالم الحقّ الذي جاء به الأنبياء والرسل.

ثانياً : الهداية المرغوبة الوارد ذكرها في سورة الفاتحة ، هداية متميزة ، خصوصاً وأنّها حُدّدت بالمغايرة مع طريق المغضوب عليهم والضالين ، مع أنّها وردت في مواطن في القرآن الكريم لتقابل هداية المشركين ، وكفار العرب . ولعلّها تدلّ هنا على لزوم المفاصلة الفكريّة والسلوكيّة بين دين الإسلام الذي اختاره الله للشموليّة والبقاء ، وبين الديانات السابقة له .

ومن هنا ينبغي أن يكون حوارنا مع غيرنا ، حوار عقائد وليس حوار حضارات ، ليكون أساسه ومنطلقه وحي الله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ٦٤) لذلك يلزمنا توضيح الرؤية العقدية لتحديد المواقف والعلاقات ، ومن ثمّ تقرير مبدأ (الولاء والبراء) في ضوء معالم طريق الهداية الربانيّة لتحرير ذاتيّة الأمّة المؤمنة ، وتعزيز قدرتها على الإبداع في شتّى ميادين الفكر التربوي ، فإذا تحررت الأمّة من تبعيّتها لغيرها بفعل استقلاليّة المنهج - بعد توفيق الله - فإنّ ذلك يُعزّز فيها القدرة على النهوض والتميّز في مسيرة التربية والتعليم.

قول (آمين) بعد قراءة الفاتحة في الصلاة :

آمين هي ختم فاتحة الكتاب ، وليست آية من الفاتحة ، وإنّما هي ممّا أمر النبي ﷺ بقولها في الصلاة بعد قول (ولا الضالين) وتأمين الامام. قَالَ ﷺ: "إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الملائكة غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[1] وقال ﷺ : "ماحَسَدَتْكُمْ الْيهودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلامِ وَالتَّأْمِينِ"[2].

ومعناها : اللهم استجب لنا ما دعوناك في قولنا (اهدنا الصراط المستقيم) فالدعاء طلب هداية ، وآمين دعاء لتحقيق هذا الطلب.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان ، رقم الحديث (٧٤٧)؛ وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، رقم الحديث (٤١٠)

(٢) سنن ابن ماجة، كتاب: إقامة الصلاة والسنّة فيها، رقم الحديث (٨٥٦)

الخاتمة

بعد توفيق الله تمّ لي إنهاء صفحات هذا الكتاب ، آملا أن يكون قد أدّى الغاية التي رجوتها من إعداده ، خصوصا وأنّ الفكر التربوي الإسلامي المعاصر في غالبه يعيش حالة من الانفلات والفوضى ، فالرؤيا العقدية معالمها غير واضحة ، والضوابط الشرعية لا تحكم كثيرا من توجهاته ، سواء داخل المؤسسات أو في ميادينه العامة . ولا بدّ أن يكون الفكر التربوي الإسلامي وثيق الصلة بمصادره الأصيلة ، كتاب الله وسنّة رسوله ، لتكون تعاليم الوحي الإلهي منبع استقاء ، واليقين بالله مصدر ثقة واعتزاز ، وليكون التفاؤل بالمستقبل أساسه اليقين بوعد الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور ٥٥)

وختاما أسأل الله أن يوفقنا للعمل بما يُرضيه ، وأن يسدد خطانا على طريقه المستقيم ، وأن يكتب القبول لهذا الكتاب بالقدر الذي أخلصت فيه لوجهه الكريم ، فهو ولي التوفيق ، والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر

- تفسير البيضاوي، دار الفكر – بيروت.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي ، دار الفكر - بيروت - ١٤٠١.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، دار الكتب العلمية/بيروت/ ٢٠٠٠م ، ط١
- تفسير السعدي، الرسالة - بيروت ، ٢٠٠٠م ، تحقيق : ابن عثيمين.
- تهذيب التهذيب، لابن حجر ، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٤ - ١٩٨٤، ط١
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الشعب/ القاهرة.
- جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٩٧م، ط٧، تحقيق: شعيب الأرناؤوط / إبراهيم باجس.
- الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت – ١٩٩٣م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث– بيروت.
- سنن أبي داود ، إحياء التراث العربي.
- سنن ابن ماجة ، شركة الطباعة العربية، ١٩٨٤م.
- سنن الترمذي ، دار الفكر، ١٩٨٣.
- سنن الدارمي، دار إحياء السنة.
- سنن النسائي ، دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٦م.
- صحيح البخاري ، تحقيق البغا، دار ابن كثير/اليمامة، ١٩٨٧.
- صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٢.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

❖❖ فتح القدير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر – بيروت.
❖❖ في ظلال القرآن، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة.
❖❖ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٧٣م، ط ٢، تحقيق: محمد الفقي.
❖❖ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م.
❖❖ موطأ الإمام مالك ، دار إحياء التراث ١٩٨٥م.
❖❖ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ط١، تحقيق: محمود عمر الدمياطي.

برامج الكومبيوتر
المستخدمة في البحث وفي ترقيم الأحاديث

١- برنامج حرف للقرآن الكريم ، شركة حرف لتقنية المعلومات مصر ، الإصدار (٧,١)
٢- برنامج حرف لموسوعة الحديث الشريف ، شركة حرف لتقنية المعلومات، الاصدار (٢,١)
٣- الجامع الكبير لكتب التراث العربي والإسلامي ، مركز التراث للبرمجيات ، اصدار ٢، ٢٠٠٥م.
٤- المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢
منهج البحث	٤
أهمية سورة الفاتحة	٥
الآثار الواردة في سورة الفاتحة	٦
تفسير الاستعاذة	٨
حقيقة الشيطان	٨
من هم شياطين الإنس؟	١١
الدلالات التربوية للاستعاذة	١٢
تفسير البسملة وبيان فضلها	١٩
الدلالة التربوية للبسملة	٢١
تفسير ﴿الحمد لله رب العالمين﴾	٢٣
بيان دلالتها التربوية	٢٨
تفسير ﴿الرحمن الرحيم﴾	٣١
بيان دلالتها التربوية	٣٤
تفسير ﴿مالك يوم الدين﴾	٣٥
بيان دلالتها التربوية	٣٩

الموضوع	الصفحة
تفسير ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾	٤١
بيان دلالتها التربوية	٤٣
تفسير ﴿اهدنا الصراط المستقيم ... ...﴾	٥٠
بيان الدلالات التربوية للآيتين	٥٣
قول آمين بعد قراءة الفاتحة في الصلاة	٥٥
الخاتمة	٥٦
فهرس المصادر والمراجع	٥٧
فهرس الموضوعات	٥٩